المحاضرة الخامسة: تصنيف القصص الشعبي لدى بعض الباحثين

تضم القصة الشعبية في الجزائر، بصفة عامة مجموعة كبيرة من الأصناف والأنواع، كما تتداخل بعض الأنواع في قصة واحدة، وهذا طبعا يعود إلى الرواة الذين مزجوا بين أنواع من القصص فجعلوها قصة واحدة، أو جزأوا قصة طويلة تضم أحداثا مختلفة، فأخذوا كل حدث على حدة، وقصوه باعتباره قصة، أو جزأوا قصة طويلة تضم أحداثا مختلفة، فأخذوا كل حدث على حدة، وقصوه باعتباره قصة مستقلة، وهذا ناتج عن عدم التدوين، وحرية القاص في التصرف بالنصوص، كما يحلو له، كما أنه في بعض الاحيان يكون ضعف ذاكرة الراوي سببا في هذا الاختلاط، أي أنه يقص نصف القصة، ويغيب عنه النصف الآخر،فيكملها بما يشابهها من قصة آخرى، فتأتي مزدوجة المضمون، متعددة الأغراض.

ولكن إذا نظرنا إليها نظرة شمولية دون أن ندقق في جزئياتها نستطيع أن نصنفها إلى أصناف مختلفة، حسب الفكرة العامة الغالبة على معطياتها، والأحداث البارزة فيها، وبالتالي يمكن لنا أن نجدها تتنوع كالتالي:

1. القصص السلطاني.
2. القصص الديني.
3. القصص البطولي.
4. القصص الحيواني.
5. قصص الجن والغيلان.

1) القصص السلطاني:

أعنى بهذه التسمية، القصص التي تتناول السلاطين والملوك، ومغامرة أبنائهم، إذ يعتبرون من فئة خاصة. هذا النوع منتشر بكثرة في الاوساط الشعبية، غير أن هناك ملاحظة فرضت نفسها في هذا النوع هي صيغة النكرة حول شخصيات هذا النوع من القصص، رغم كثرتها فإننا لا نعرف عن أي سلطان تتحدث القصة، إلا في حالات قليلة وإن كنت لا استطيع أن أجزم بهذه الملاحظة إلا أن جميع النصوص التي سمعتها وتم تسجيلها كانت هذه الملاحظة سائدة فيها، إلا قصة واحدة، وقد رويت لي باسم (هارون الرشيد) ووجدتها مدونة في كتاب

تحت عنوان(الأقرع بوكرشة)[1] غير أنها تتكلم في محتواها عن هارون الرشيد الذي لم يكن سلطانا وإنما هو من عامة الشعب ثم ارتقى إلى قاض للسلطان، وبعد وفاة السلطان أصبح سلطانا. وهي القصة نفسها المروية عندي، غير أنها تختلف عنها في كون هارون الرشيد كان سلطانا منذ البداية.

أما بقية النصوص السلطانية، إما أن تنطلق من السلطان نفسه،أو أن أحد العامة بعد أن يقوم بأعمال خارقة يقربه السلطان، وعند وفاته يتولى مكانه، وغالبا ما يكون دور السلطان سببا بظهور البطل، كأن يضع شروطا صعبة لزواج ابنته تصل إلى حد الموت، فيغامر البطل بحياته ليتزوج بنت السلطان، رغم مزاحمة الملوك والأمراء وأصحاب الجاه والمال له، فيعيش معه ثم يستخلفه بعد ذلك.

وهذا التعميم في قصص السلاطين ربما يعود إلى حالة نفسية يعاني منها الشعب، والتي تتمثل في تسلط عائلة معينة على الحكم، وانتقاله من فرد إلى آخر، فأراد الشعب أن يعبر عن رفض هذه الحالة بتهميش دور السلطان، وأن في عامة الناس هو أحسن منه وأقدرعلى أن يكون سلطانا، لذا كان البطل الشعبي دائما يتغلب على حيل السلطان، بل يفوقه ذكاءا مما يجعل السلطان يعينه قاض القضاة... وهذا ما يغلب على الطابع العام لهذا النوع

2) القصص الديني:

من المعلوم أن من بين المؤثرات التي أثرت على القصة الشعبية الإسلام كعقيدة توحيدية، ويبقى هذا التأثير عليها في اتجاهها واعادة تشكيل مضامينها، التي اتسمت بسمة الاسلام.

حتى إننا نكاد نجزم أن ظهورها جاء بعد مجيء الإسلام، ولولا البقايا القديمة التي تذهب بها إلى أبعد من ذلك.

كذلك كان للقرآن الكريم دوره في إثراء القصص الشعبي بما ورد فيه من قصص كثيرة، والتي اتخذها الشعب متكأ له في إبداعاته، مثل قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامه وبعض الشخصيات الواردة فيه.

وتكون القصة الدينية، إما مستقلة تتناول موضوعا واحدا، كسيرة الرسول صل الله عليه وسلم، أو تتداخل بعض المواضيع فيما بينها، ويمكن أن نحصرها في اتجاهين..

1) اتجاه عام: يتناول القصص الواردة في القرآن الكريم مع الزيادة أو النقصان ثم القصص المتضمنة بحياة الرسول وحروبه مع الكفار، وسيرة بعض الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم.

كما يمكن ادخال قصص الأولياء والصالحين ضمن هذا النوع وهي منتشرة بكثرة في الأوساط الشعبية والاعتقاد الجازم في الأعمال الخارقة المنسوبة إليهم.

2) اتجاه خاص: وهو يخدم تيارا معنيا، ويدعو له، ويتمثل في التشييع لآل البيت، وأغلب هذه القصص في هذا الاتجاه، قصص السيد علي(الإمام علي) الذي نسجت حوله قصص فاقت حدود العقل والمعقول، وتحولت شخصيته إلى شخصية أسطورية كشخصيات الآلهة في الأساطير القديمة، حتى إنها طغت على بقية الشخصيات المهمة في التاريخ الإسلامي، وتأتي بعده شخصية السيد عبد الله(عبد الله بن جعفر) هذه الشخصية الشعبية التي يبدو أنها لعبت دورا مهما في فتح إفريقيا[2]، حسب النصوص المروية عنه، ثم بقية الشخصيات الدائرة في هذا الاتجاه، كفاطمة، والحسن، والحسين، والعباس ويوم كربلاء، وغيرهم، وهذا من تأثير الاتجاه الشيعي في المنطقة لكونها كانت بوابة للفتح الإسلامي، وعرفت أشكالا من المد والجزر في تلك الفترة، ولعل ما روى عن عقبة وكسيلة. وعن عدم استقرار البربر على الديانة الإسلامية أول الأمر خير مثال على ذلك.

3) القصص البطولي:

في الحقيقة كل القصص الشعبية يحرك أحداثها بطل تبرز شخصيته على كافة المشاركين في تحريك الأحداث وصنعها، غير أن النتائج النهائية لجميع الأحداث تكون من عمل بطل واحد، لأنه المحور الذي تدور في فلكه الأحداث، وذلك لما يتميز به من قدرات لا توجد عند الآخرين، هذه القدرات تجعل منه القدوة المتبعة، والمثل المنشود" الذي ابتدعه وجدان الجماعة ليكون نموذجا لكل الأفراد، فهو جماع فضائلها، وهو المحقق لأحلامها وفضائلها"[3]، وظاهرة البطولة الخارقة في القصص الشعبي، ما هي

إلا انعكاس لتحقيق رغبات الشعب عبر هذا النموذج الذي يحمل أكثر مما يطاق، غير أن الوسائل التي يحتاج لها من كائنات تجعله يتحمل مسؤولية تحقيق هذه الرغبات، والتغلب على كل الصعوبات، ولا يهم الأعمال الخارقة التي يقوم بها، بقدر ما تهم النتيجة التي يصل إليها البطل، لأن النتيجة هي الغاية.

والخوارق هي الوسيلة لتحقيق تلك الغاية، لأن السامع ينتظر من النص القصصي النتيجة التي توصل إليها البطل الذي يمثل بالنسبة إليه نوعا من الإشباع النفسي.

ويمكن أن نحدد أنواعا من قصص البطولة، هذه الأنواع يختلف فيها البطل من حيث الاتجاه ومن حيث الفكرة العامة التي يسعى وراءها.

فالبطل في القصة الدينية غير البطل في القصص الأخرى، ولذا يمكن أن نصنفها إلى أصناف كل صنف له مميزاته،وخصائصه:

الصنف الأول: البطولة الدينية، ومصدرها "التاريخ الإسلامي بوجه عام، والسيرة النبوية، والفتوحات الإسلامية بوجه خاص. بطولات الذين خلدت أسماؤهم في صدر الإسلام"[4]، وشخصيات هذا النوع نموذجية في التقوى والتدين، وحب الخير،والإيثار ولو كان بهم خصاصة،ثم الشجاعة النادرة، والاستعداد بالتضحية في سبيل مبدئهم، ويدخل ضمن هذا النوع شخصيات الصوفية ورجال الطرقية وما ينسب إليهم من كرمات، والتشكل والانتقال والمكابدة.

والصنف الثاني: الذي يمكن أن نسميه البطولة العادية أي أن البطل إنسان عادي، وتحت ظروف ما، كالفقر أو الهروب من البيت، أو البحث عن المفقود، هذه الظروف تسوقه إلى معالجة أحداث تعترضه فيتعامل معها مجبرا على ذلك، فيخرج منها منتصرا فيتحول بذلك من العادي إلى النخبوي، ويصير فردا متميزا له خصائص معينة مع مسخرات تساعده على تحقيق أهدافه.

والصنف الثالث: هو البطولة الحديثة المنبعثة من شخصيات حقيقية لعبت دورا مهما في مجتمعاتها تحت ظروف خاصة.

هذه الشخصيات تحت تأثير الإعجاب تحولت إلى شخصيات شعبية، وهي المعاصرة لفترة الإحتلال الفرنسي، وما قامت به من أعمال ضد المحتل، وإن لم تصل إلى البطولة الخارقة فإنها فرضت نوعا من التوازن النفسي تجاه الظلم والقهر وإزالتهما، فظهرت شخصيات أو بطولات شاع ذكرها وذاع صيتها كشخصية محمد أمزيان المعروف ب(بوهقنوشت)أي (بوبرمة)[5] بناحية آريس وأصحاب (مدفع الكروش) بنواحي مروانة، و(محمد بن النوي)في ناحية التونة، و(المسعود ابن زلماط)[6] بنواحي آريس والذي خلده شيخ الأغنية الأوراسية (عيسى جرموني)،و(بومصران)، والشيح المقراني ، ولالة فاطمة نموسر... وغيرهم من الشخصيات التي أدخلها الخيال الشعبي إلى عالم البطولات الشعبية، وما زال أبطال الثورة التحريرية تدور حولهم الروايات المختلفة، وقريبا يتحولون إلى أبطال شعبيين إذا ما توفر لهم الخيال الواسع، وكثرة الرواية وتداولها.

4) القصص الحيواني:

تتناول قصص الحيوانات المنتشرة في المنطقة والقريبة من الإنسان، وتروى على سبيل التسلية والترفيه والتنكيت، وأخذ العبرة منها، وهي منتشرة في كامل مناطق العالم، ولا تخص شعبا من الشعوب، "تقوم الحيوانات بأدوار رئيسية في هذا النوع من القصص، وتشترك مع شخوص آدمية في تلخيص تجربة أو الوصول إلى غاية آخلاقية ووعظية(...) وهي نزعة تشبيهية يردها الدارسون إلى عقائد دينية قديمة"[7]،وقد يلعب هذا النوع من القصص دور الرمز والترميز للتعبير عن حالة يصعب الإجهار بها فيكون الحيوان أحسن من يقوم بهذا التعبير عن طريق المقابلة بحالة يمثلها الحيوان بحالة يعيشها الإنسان" فهي حكايات أقرب إلى التعليمية أو الشرح أو التفسير. كما أنها حكايات ملخصة في غاية الدقة من حيث التصميم والتلخيص ولها مغزاها وحكمتها، ودقة ملاحظتها"[8] وتعطي نوعا من التجربة التي يحتاجها الإنسان[9].

5) قصص الجن والغيلان:

يدور هذا النوع في عالم الجن المصاحب للإنسان منذ وجوده، وغالبا ما يكون مساعدا مهما للبطل، إذ يظهر له في أوقات الشدة، فيأخذ بيده وينتصر له – وربما يكون هذا

تحول من تدخل الآلهة للمساعدة إلى تدخل الجن. وحكايات الجن كثيرة الانتشار والرواية في الوسط الشعبي وربما جاء ذلك من تأثير القرآن الكريم، أو هي من بقايا قديمة عرفها الإنسان واستمرت معه.

وأحيانا يدخل الإنسان في صراع مع الجن، هذا الجن يكون قد خطف عروسا أو عطل عملا، ولا يتغلب عليه إلا من له حكمة في ذلك.

ويعتقد الكثير من الناس في أن حكايات (البازغوغ) هي من أعمال الجن يخيف بها الإنسان، وبالأخص الأطفال.

أما قصص الغيلان فلها قسط وافر في النصوص الشعبية، وفي المعتقد الشعبي أنها– أي الغيلان– كائنات ضخمة تتشكل في أشكال مختلفة، تعيش كالإنسان في البيوت وتتزوج وتلد – وأحيانا تتزوج من الآدمية– وترعى الغنم وتفلح الأرض غير أنها تتعدى على الإنسان تأكله أو تحسبه أو تسخره في خدمتها، ولا يتغلب عليها إلا الإنسان الذكي أو من له القوة الخارقة التي لاتأتي إلا لأفراد قلائل، وهي غالبا ما تكون أقل ذكاء من الإنسان ولولا قوتها لما خاف منها الإنسان.

والوسط الشعبي يعتقد في وجودها في الماضي وأن البعض قد شاهدها، وهناك صخرة ضخمة بجانب الطريق المؤدي إلى مدينة آريس في (افرا) في ولاية باتنة يقال إن الغول رمى بها زوجته الغولة حينما فرت منه.

وبعد هذا التصنيف العام للقصص الشعبي التي تعاملت معها، هناك ملاحظة لابد من ذكرها تتعلق بالقصة الغرامية، إذ يكاد ينعدم هذا النوع. وإني لحد الآن لم أعثر على نص يتناول هذا الموضوع، اللهم إلا ما نجده في بعض القصص، كأن يسمع أحدهم بوجود فتاة جميلة في مكان بعيد يصعب الوصول إليها، فيدفعه حب المغامرة للحصول على تلك الفتاة.

أما أن نجد نصا يتناول حكاية العشاق، فهذا ما لم أتوصل إليه.

وأظن أن هذا يعود إلى كون الرواية تتم في مجتمع محافظ لا يقبل هذا النوع الذي يمس أخلاق العائلة أو المجتمع الذي هو في شغل يشغله عن هذا النوع من النصوص، أو أنها تروي في مجال ضيق جدا مما لا يسمح لها بالإنتشار.

وإن كنت لم أقف عليها والوصول إليها، فإنني لا أستطيع أن أجزم بعدم وجودها بأية حال من الأحوال.

زيادة على هذا التصنيف. هناك تصينيفات أخرى وضعها باحثون جزائريون، الذين درسوا القصص الشعبي الجزائري من مناطق مختلفة، وهي:

أ) الدكتورة روزلين ليلى قريش في كتابها:

القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، وقد صنفت النصوص إلى:

1. قصة البطولة
   - البطولة الدينية
   - البطولة الوعظية
   - البطولة البدوية
   - البطولة الحديثة
2. قصة الخرافة الشعبية:
   - الخرافة الشعبية الدينية
   - الخرافة حول شخصيات غير دينية عاشت حقيقة
   - الخرافة حول الحب
   - الخرافة المحلية
3. القصة الصغيرة
   - قصص التسلية
   - قصص التفيف عن المكبوتات
   - قصص ذات مغزى

ب) الدكتور عبد الحميد بورايو في كتابه:

القصص الشعبي من منطقة بسكرة وقد قسم النصوص إلى :

1) قصص البطولة
2) الحكاية الخرافية
3) الحكايات الشعبية

ت) الدكتورة بايا كاهية: من موضوع رسالتها(الماجستير) الموسوم ب:

القصة الشعبية في منطقة البرج، والتي صنفت النصوص إلى:

1) الحكايات الشعبية ذات الملامح التاريخية
2) حكاية الواقع الإجتماعي والأخلاقي
3) حكاية العجائب(الخرافة)
4) حكاية البطولة
5) حكاية الحيوانات
6) حكاية التسلية (المرحة)
7) حكايات ذات طابع سياسي

وطبعا هذه التصنيفات المختلفة لم تخضع لمنهج معين يرغم الباحث على اتباعه. وإنما هي رؤية الباحث واجتهاده الخاص، وهذا ما أعطى تنوعا في تعدد الأصناف. وربما هناك سبب آخر أراه يفرض نفسه وهو غياب اتجاه معين من محاولة توجيه الدراسات الشعبية الجزائرية، وكما نعلم أن هذا الموضوع من الدراسة قليل الإهتمام به، سواء في المؤسسات الرسمية، أو من طرف الباحثين الجزائرين.

وهذا ما أدى إلى انتهاج كل باحث طريقه الخاص به الذي يراه مناسبا لدراسته.

[i] الهوامش :

[1]– عمر بن قينة: قصص شعبية من الجزائر ص81

[2]– انظر: الواقدي: فتوح إفريقيا (الكتاب)

[3]– عبد الحميد يونس: دفاع عن الفلكلور: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 ص 138

[4]– ليلى قريش: القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ص108

[5]– انظر: التراث : مجلة تاريخية تصدرها جمعية التاريخ والتراث الأثري بباتنة، العدد 1 جويلية 1986 ص 61.

[6]– انظر: عبد الله الشفعى: ثورة الأوراس سنة 1916: (رسالة ماجستير) مخطوط بمعهد التاريخ جامعة الجزائر ، ص 104

[7]– عبد الحميد بورايو : القصص الشعبي في منطقة بسكرة ، ص 124 .

[8]– شوقي عبد الحكيم: الحكاية الشعبية العربية، ص 105 .